

ظاهرة الحجاج في مقامات أبي زيد السروجي

أ.م.د. صادق جعفر عبد الحسين

كلية الآداب / جامعة ذي قار

الملخص

حاولت الدراسة في هذا البحث الكشف عن ظاهرة الحجاج في مقامات السروجي ، بعدها تقنية اتصالية تهدف إلى اغواء وإغراء المتلقي وخداعه ، واستمالته والتأثير فيه ، وقد تناولت الدراسة بعد المقدمة مبحثين تضمن المبحث الأول أنماط الحجاج في مقامات السروجي والتي تمثلت بواسطة نمطين ، هما : نمط الحوار ، و نمط لغة الجسد . أما المبحث الثاني فتناول دور التكوين البديعي في الحجاج متناولين فن التقابل ، وفن السجع ، وتتبعها خاتمة بأهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة وقائمة بالمصادر ، وقد انتهج البحث المنهج الوصفي التحليلي، إذ تم وصف ظواهر الحجاج ثم تحليلها في ضوء نظريات الحجاج التي تتناسب وسياق النص المطروح .

Abstract

In this study, the study dealt with the phenomenon of pilgrims in the mujamat al-suruji, then a communication technique aimed at seducing the temptation of the recipient, his deceit, and his influence and influence. , And body language style. The second part deals with the role of the primitive training in the pilgrims in terms of the art of encountering and the art of success. It is followed by a conclusion with the most important findings of the study and a list of sources. The research followed the analytical descriptive method. The phenomena of pilgrims were described and analyzed in the light of the theories of pilgrims.

تقديم

تعد شخصية أبي زيد السروجي من أظهر الشخصيات في مقامات الحريري ، ويذهب النقاد مذاهب شتى في نظرهم لهذه الشخصية ، فقد قيل هو ((المطهر بن سلام النحوي البصري الذي صحب الحريري واشتغل عليه بالبصرة وتخرج على يديه وروى عنه))^(١) ملحمة الإعراب ، وبهذا فهو شخصية حقيقية^(٢) ، في حين يرى آخرون أنها شخصية خرافية^(٣) من نسج خيال الحريري، إذ فرض عليه تتبع نسق مقامات الهمذاني خلق هذه الشخصية^(٤) ، فيما يرى فريق ثالث أن هذه الشخصية هي خلط بين الواقع والخرافة^(٥) ، وفي كلا الحالات فإن شخصية أبي زيد السروجي تظهر في المقامات بصور متعددة ، فقد نراه متكسباً ومستجدياً مرة ، أو محتال مراوغ مرة أخرى ، وقد يظهر شاكياً أو واعضاً جدياً، وهو في هذا كله كثير التندر يسعى إلى استدراج الآخرين وإقناعهم والإيقاع بهم. موظفاً حججا مختلفة وأنماط حجاجية شتى وسنتطرق إلى نمطين من أنماط الحجاج الموظفة في مقامات السروجي هي: نمط الحوار ونمط لغة الجسد في المبحث الأول. وفي المبحث الثاني سنحاول بيان دور التكوين البديعي في الحجاج الموظف في مقامات السروجي بواسطة فنون البديع المختلفة .

المبحث الأول : أنماط الحجاج في مقامات السروجي

كان لظاهرة الحجاج في مقامات أبي زيد السروجي حضور واضح من خلال محاولاته في إقناع المتلقي واستدراجه ، ولقد تبينت ظاهرة الحجاج بواسطة نمطين، هما: نمط الحوار، و نمط لغة الجسد ، وفيما يأتي تفصل الحديث عن هذين النمطين :

أولاً : نمط الحوار :

يعرف الحوار بأنه ((نوع من التفاعل اللفظي ، يُلزم فيه المتخاطبون بأن يجادلوا ، وأن يسجلوا نقاطاً على بعضهم البعض ، وأن يفاوضوا للوصول أو عدم الوصول إلى حلول))^(٦) ، فالحوار يجمع ما بين الجدل والمفاوضة والغاية منه الاقتناع ، كما يعرف الحوار بـ ((كونه فعلاً قاصداً يتجلى في صورة متوالية من الرسائل أو أفعال الكلام ، يتداولها واحد أو أكثر من المتحاورين ، بحيث يوجه هدف مشترك ، يتعاون الطرفان في تحقيقه ، ويلتزمان لأجل ذلك بجملة من الضوابط والمقتضيات))^(٧) ، ويسعى الحوار إلى تغيير موقف ما ، أو اعتقاد فهو يسعى إلى التأثير وهذا ما يقصده الحجاج ، ويتكفل الحوار طرح الأفكار والدفاع عنها أمام الاعداء والخصوم ، فهو المجال الرحب والواسع لعرض الحجج والأدلة^(٨) ، ويكثر استعمال الحوار في المقامات إذا تدور الاحاديث بين شخصين يعتمد كل منهما إلى عرض افكاره معتمداً على قوة الحجة ، وجمال الأسلوب ، وقوة اللغة ، وبذلك فإن استثمار الاستراتيجيات الحجاجية التي تهدف إلى تحقيق مقاصد صاحب المقامة التي تتمثل في المراوغة والاقتناع والداورة والايقاع^(٩) سمة أساسية من سمات المقامة ، ويمكن تتبع الحوار وتحركه في المقامة وذلك من حوار السروجي وزوجته وجماعة من النساء حين اختصما إلى قاضي تبرير ، فيبدأ الحوار بأقوال النسوة:

((واحدة : يا ويل النساء من الرجال! امرأة باهرة الجمال ، رقيقة الحال ، ينال منها الشيخ القاسي – كل هذا المنال ! !

أخرى : يا للرجال ما يقنعون !

ثالثة : تقدمي يا أختاه ... قصي كل شيء !

رابعة : تذرعي بالبكاء وكيد النساء ... !

خامسة : أذكري سوء المعاملة ، وتقدم السن والمغازلة !

سادسة : أواه ... إن النساء مهيضات الجناح !

رجل : وأنت أيها الشيخ تقدم واذكر أن الرجال قوامون على النساء ...

القاضي : ومن هذان القادمان ؟ - بعلان مختصمان .. ! !

الشيخ : أيد الله القاضي وأحسن إليه ... !

- إن مطيتي هذه أبيع القيادة كثيرة الشراد ...

- مع أي أطوع لها من بناتها ، وأحنى عليها من جناتها ...

- تزوجتها لتؤنسني في الغربة وتزيل عني تعب العزبة ...

- فتأبى إلا أن تبخسني حقي ، وتكلفني فوق طوقي ...

- وها نحن قد تساعينا إلى الحاكم ، ليضرب على يد الظالم ...

القاضي : ويحك يا امرأة – أما علمت أن النشور يغضب الرب ويوجب الضرب ؟

المرأة : إنه وأيم الحق جائر ظالم ، يأخذ الجارَ بالجار ، ويدورُ خلف الدار ...

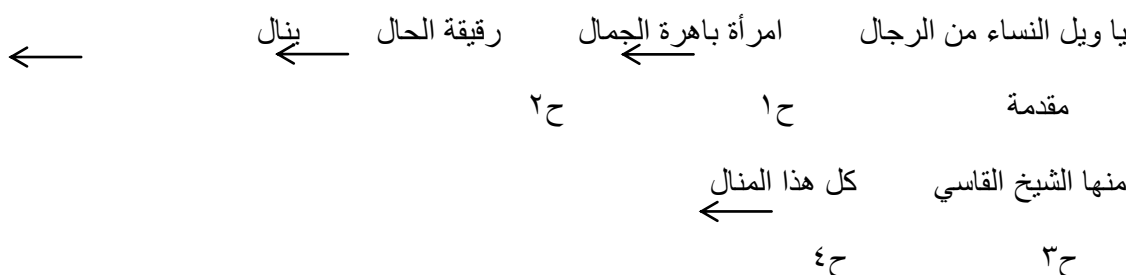
القاضي : تباً لك ! أتبذُر في السباخ ، وتستفرخ حيث لا إفراخ !؟

الشيخ : سُحَقاً لك يا امرأة !

- إنها ومُرسلِ الرياح لأكذب من سجاح !

المرأة : بل هو ومن طوق الحمامة ، وجَنَحَ النعامة لأكذب من أبي نمامة ، من ذاع أمره في اليمامة مسيلمة الكذاب ((^(١٠))

بنيت المقامة على الحوار المتبادل بين أربعة أطراف ، الطرف الأول : هو مجموعة من النساء ، سعت كل منهن إلى تأجيج العملية الحجاجية ، وإقناع المرأة وتشجيعها عرض قضيتها أما القاضي ، وكل واحدة من النساء الست تعرض حجة تبين فيها مظلومية المرأة أ حجة تعرضها المرأة أما القاضي لتتال من الشيخ ، فالمرأة الأولى تبدأ حجتها بنداء يتصدر الخطاب ويمنحه قوة حجاجية عالية ؛ وذلك لأنه يوقظ النفس ويلفت الذهن وينبه المشاعر ، كما أنه جاء كمقدمة مهدت للحجج التي تلتها ، إذ جاءت الحجج كما يأتي :



لقد كانت الحجج التي تلت النداء قرينة تدل على مظلومية المرأة وضعفها وسيطرة وسطوة الرجل عليها على الرغم من جمالها ورقتها ، وحالة الشيخ كبير السن القاضي ، تُكمل بعد ذلك المرأة الثانية الحوار وتتابعها الثالثة ، أما المرأة الرابعة ، والمرأة الخامسة ، فتقدمان الحيل التي تعضد حجج المرأة أمام القاضي لتتمكن من الغلبة ، ثُمَّ تُكمل السادسة ما بدأت به المرأة الأولى . ينتقل بعد ذلك الحوار إلى رجل يساند الشيخ ويقدم له ما قدمته النسوة إلى المرأة فيشجعه للتقدم ، ويعرض عليه حجة ليعرضها أما القاضي ((الرجال قوامون على النساء)) . يبدأ بعد ذلك الحوار بين الاطراف الثلاث الرئيسة (الشيخ ، والمرأة ، والقاضي) ، وقد افتتح القاضي الحوار بسؤال عن هوية الشخصين القادمين ، ثُمَّ يجيب بنفسه متعجباً ((بعلان مختصمان)) ، ليبدأ بعد ذلك الشيخ ليسرد مظلوميته مبتدأ حجته بالتودد إلى القاضي ((أيد الله القاضي ، وأحسن إليه)) ، ثُمَّ يسرد بعد ذلك مجموعة حجج يخاطب بها عواطف القاضي ليدفعه إلى ((الاعتقاد بصحة الفكرة التي يطرحها ... فعامة الناس ينفادون وراء عواطفهم أكثر مما يستجيبون لنداء العقل ومنطقه))^(١١) فيصور نفسه بصورة الحنون المطاوع الذي تزوج من هذه المرأة لتكون انيس وحشته إلا إنها تأبى إلا أن تبخسه حقه ، وبذلك عرف الشيخ كيف يحرك عواطف القاضي ويوظفها لخدمة أهدافه ، فقد استطاع أن يؤثر في حكم القاضي وما يحمله حول تلك القضية من وجهات نظر^(١٢) ، إلا إنَّ المرأة تسارع لتتخذ الموقف لصالحها فتقدم حجتها لتبطل دعوى

الشيخ ، إلا إنها لم تفرق عن الشيخ في محاولتها لاستثارة عاطفة القاضي ، فتبدأ حجتها العاطفية بقسم يتصدر الخطاب ليكون حجة داعمة للحجج التي تليه ، فتحول وجهة نظر القاضي لصالحها ، ويستمر الحال بالشيخ والمرأة بعرض الحجج العاطفية أو التعويل على ((الباتوس))^(١٣) أي الحجج التي تخاطب العاطفة إلى أن يصلا في نهاية المطاف إلى مخادعة القاضي وتضليله ، وتحقيق الغاية وحصول الشيخ والمرأة على دينارين . وبذلك فإن تبادل الأدوار الكلامية في الحوار أدى إلى التأثير والإقناع وتحقيق الحجاج غايته الرئيسية .

ثانياً : نمط لغة الجسد :

لقد وظّف السروجي في مقاماته نمطاً حجاجياً آخر هو نمط لغة الجسد أي أن السروجي لكي يؤثر ويقنع يوظف جسده بلغته وتحركاته وثيابه ، ويسلك سلوكاً معيناً ، وهذا السلوك يُعد مؤثراً بما يحمله من إيماءات وإشارات يحتج بها المحاجج على محاججه إذ إن هذه ((الإشارات غير الكلامية هي أكثر مصادر التواصل صدقاً وموثوقية في عملية الإقناع))^(١٤) ، ويركز هذا النمط من الحجاج على بعض الأفعال التي يقوم بها المحاجج ، إذ إنها تركز على ((كل ما هو خارج عن النص (الخطاب) من وسائل وأدوات تستخدم كأدوات حجاجية من أجل))^(١٥) التأثير والإقناع ، وفي هذا النمط ((يتوسط الفعل حتى يكون شفيحاً للقول))^(١٦) ، إذ إن الأفعال لا تنفصل عن الكلام بل تكون بمثابة التدعيم للكلام ، ومن شواهد هذا النمط ما قام به الشيخ في مقامة (السروجي وزوجته يختصمان إلى قاضي تبريز) ، إذ كانت هيئته كما وصف في المقامة ((جماعة من النساء يتبعن شيخاً ملتقاً بكساء ، يسوق امرأة باهرة السفور ، ظاهرة النفور))^(١٧) ، فقد استعان السروجي بالحجج المادية للتمويه وتضليل المتلقي واقناعه بما سيعرض من حجج فجاء ملتقاً بالكساء ، للدلالة على فقر حاله ، ثم حين خاطب القاضي ((وقد جثا على ركبتيه أمام القاضي))^(١٨) بانياً نصه الحجاجي على تعبير الجسد الذي يعتبر ((خطاب معرفي مثله مثل أي خطاب أدبي أو ديني أو فكري ، يخضع إلى تحليل أو تفكيك لوحاته النسقية المعرفية الناطمة للبناء النص))^(١٩) ، فقد قام الشيخ بهذا السلوك لما يضمّر من دلالات متعددة منها : أهمية ما جاء به السروجي من دعوى ، وليدل على انكساره وهوان جسده حتى لم تعد قدماء تقويان على حمله ، أما هيئة المرأة فقد كانت على عكس هيئة السروجي فهي (باهرة السفور ، ظاهرة النفور) ، وبذلك يتناقض حالها وحال السروجي ، وهذا السلوك يؤثر في مسار العملية الحجاجية وفي مسيرة الإقناع ، إذ يعتمد التأثير والإقناع على إشارات وعوامل وهي لغة الجسد وجاذبية المتكلم وإشاراته ، وحركاته التي تؤثر على عقل الطرف الآخر في الحجاج^(٢٠) .

أيضاً من الشواهد على هذا النمط هيئة السروجي في مقامة (مع السروجي في ساحة القضاء) إذ جاء في المقامة ((مختصمان يتشادان ، وجمهور من الناس يتبعهما شيخ في أثواب بالية تجره إلى ساحة التقاضي امرأة شديدة البأس ، عارية الرأس))^(٢١) ، إضافة إلى السياق اللغوي عزز السروجي حججه بسياق مصاحب وهو غير لغوي ، فقد سلك السروجي سلوكاً لم يكن عبثياً بل كان غائياً قاصداً وهو ارتدائه الأثواب البالية ليعبر عن الفكرة التي يبغى إيصالها إلى الطرف الآخر موظفاً ما لهذه الهيئة من فاعلية في التعبير عن فقره وسوء حاله وتحريك الخطاب ، أما حال المرأة فهو كما في المقامة السابقة يناقض حال السروجي فهي امرأة قوية ، تظهر

السفور ، تجر الشيخ وتدفعه به إلى حضرة القاضي ، ويستمر الشيخ بالتحايل فيقول : (([في صوت متهدج ينم عن إعياء شديد . يردد - وهو يساق إلى حضرة القاضي] تالله - وبالله))^(٢٢) ، فالصوت المتهدج الذي ينم عن إعياء شديد يضمّر دلالات تسهم في تدعيم المعاني والدلالات التي يقصدها ، وبذلك فقد شكلت لغة الجسد دعامة أساسية في حجاج السروجي ، وكلها كانت أساليباً تضليلية مصطنعة ، وكانت بمثابة الأفعنة التي تتوارى خلفها الحقائق .

المبحث الثاني : دور التكوين البديعي في الحجاج

للبداع وظيفة حجاجية فـ ((للأشكال الصوتية والموسيقية دوراً في الإقناع النصّي باعتبارها نشاطاً يجري ويحث ويكون قادراً على إنتاج دلالات وتأويلات فهي عناصر أساسية في بناء حجاجية النصّ لقدرتها على إقناع العقول والأذهان واستمالة النفوس ، فهي أحد فروع البلاغة الهادفة إلى الاستمالة))^(٢٣) ، وقد عول السروجي كثيراً على هذا الفن البلاغي لغاية حجاجية إذ إنّ وظيفة الأشكال اللغوية التي تنتمي إلى الأسلوب البديعي لا يقف عند الوظيفة الشكلية الزخرفية ، بل له وظيفة حجاجية تهدف في خطابات السروجي إلى الإقناع والتضليل والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد^(٢٤) ، فالبداع يتمثل في كونه أسلوباً حجاجياً يؤدي وظيفة في تغيير زاوية النظر لدى المتلقي^(٢٥) ، وللبداع فنون بمقدورها أن تحقق للخطاب ما يرمي له ومن أبرز هذه الفنون :

أولاً : التقابل :

المقابلة هي ((أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما))^(٢٦) والتقابل من الأساليب ((البديعية ذات وظيفة حجاجية تأثيرية جمالية ؛ إذ يقوم بدور مهم في تشكيل العملية الحجاجية ونجاحها))^(٢٧) وأنّ حجاجية التقابل تكون بوساطة مبدأ الضد وكذلك بما ((يحققه من إيضاح المعنى وإظهاره ، وتأكيد وتقويته ، عن طريق المقارنة بين الضدين))^(٢٨) إضافة إلى وقعها الموسيقي وجرسها المتناغم الذي يشد انتباه المتلقي ، ويعمل على تثبيت المعنى وترسيخه في ذهنه ، وبالنتيجة فإنّ الاستعانة بهذا الأسلوب البديعي الذي كان جزءاً من مقامات السروجي ووسيلة من وسائل الحجاج البلاغيّة ؛ لأنّه يسهم في توضيح المعنى وتقويمه ، والتأثير في المخاطب واستمالاته وتضليله بوساطة الإيقاع^(٢٩) ، ويمكن التمثيل لهذا الفن في مقامة السروجي (أبو زيد يدعي أن ابنه سرق شعره — يختصمان إلى قاضي بغداد) وفي النصوص الآتية :

((ما بال الشيخ ، قد قصر طيلسانه وطال لسانه))^(٣٠)

((دارٌ متى ما أضحك في يومها أبكت غداً بعداً لها من دار))^(٣١)

((تبا لك من خريج مارق ، وتلميذ سارق))^(٣٢)

لقد وظف التقابل في مقامات السروجي باستعمال الاضداد (قصر — طال ، اضحكت — أبكت ، خريج — تلميذ) ، إنّ هذه التناقضات حجج يلجأ إليها المتكلم من أجل تدعيم الخطاب ، وقد أسهم توظيفها في قوة الحجة وإبراز المعنى بطريقة موجزة ، وبالنتيجة فالتقابل ليس بـ ((الضرورة ترفاً لفظياً فحسب ، بل هو تعبير في أكثر الأحيان عن حركة نفسية متوهجة ، وصراع بين ما هو كائن وما يجب أن يكون ، بين الراهن والمتوقع

((^(٣٣) ، فالتقابل هنا احتوى على طاقة إقناعية تحمل المتلقي على الرضوخ والتسليم لحال الشيخ ، وبالنتيجة يحقق ما يسعى إليه من غاياته الحجاجية .

ثانياً : السجع :

لعب السجع دوراً حجاجياً إلى جانب دوره التزييني ، والموسيقى الناتجة عن النطق بالكلمات ، ف ((السجع من المحسنات البديعية التي يستخدمها المتكلم قصد التأثير والإقناع ، لما يمتلكه من سلطة حجاجية تزيد من قوة الملفوظ))(^(٣٤) ، ونجده في مقامات السروجي بقدر كبير ، ويحتل المكانة الأولى في الاستعمال من بين كل الفنون البديعية الأخرى ، ومن أمثلة السجع عند السروجي قوله :

((إني كفلتُ هذا الغلام فطيماً ، وربيتَه يتيماً ، ثُمَّ وسعته تعليماً ، فلما مهر وبهر ، جرد سيف العدوان وشهر ، ولم أكن أخاله يلتوي علي ، أو يخرج من بين يدي))(^(٣٥)

جاءت هذه الفقرة مسجوعة ، وظهر السجع وكأنه مرتبط ارتكز عليه الخطاب كله ، فهو يقوي العملية الحجاجية ، وذلك لما يغري السامع من حسن القول وعذوبته ، وجاءت الحجج كلها لخدمة نتيجة واحدة وهي تضليل المتلقي وخداعه كي يحقق السروجي ما يسعى إليه من مال .

وفي مثال آخر نكشف فيه عن القيمة الحجاجية للسجع ما جاء في مقامة (ابو زيد السروجي وفتاه يحتالان على قاضي صعدة) .

((الشيخ : أيد الله القاضي وعصمه من التغاضي !....

إن ابني هذا كالقلم الردي ، والسيف الصدى

يجهل أوصاف الإنصاف ، ويتوق دائماً إلى الخلاف !

إذا أعربت أعجم ، وإن سكنت تكلم ! وإذا أقدمت أحجم

مع أنني كفلته منذ دب ، إلى أن شبّ ...

والله يا مولاي إنه لولدٌ عاق كثير المشاق

القاضي : أشهد أن العقوق أمر يغضب الرب ، ويوجب الضرب .

وربّ عقم كان أقر للعين من هذا الشّين ...

الغلام : والذي نصب القضاة للعدل ، وملكهم أعنة الفصل والوصل !

إنه ما دعا إلا أمنت ، ولا ادّعى إلا أمنت ...

تالله إنه يبغي بيض الأنوق ، ويطلب الطيران من النوق !

إن امره يا مولاي لعجيب !))(^(٣٦)

لقد وظّف السجع في هذه المقامة عند الأطراف الثلاثة المتحاور (الشيخ ، القاضي ، الغلام) وبالإضافة إلى تزيينه للفظ فإن السجع هنا منح الخطاب قوة حجاجية وعبر عما يجول في النفس من مشاعر وعواطف ،

الخاتمة

الأموات مش

- Y

- ## قائمة المصادر والمراجع

- 

- (١٠) تجليات الحجاج في الخطاب النبويّ، دراسة في وسائل الإقناع الأربعون النّوويّة - أنموذجاً، هشام فرّوم، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر - باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩.
- (١١) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، انيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٧٩.
- (١٢) الحجاج في النص القرآني "سورة الأنبياء أنموذجاً"، إيمان درنوني، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر - باتنة -، كلية الآداب واللغات، الجزائر، ٢٠١٢/٢٠١٣.
- (١٣) الحجاج والمغالطة، من الحوار في العقل إلى الحوار في الحوار، رشيد الراضي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الصنائع، ط١، ٢٠١٠.
- (١٤) الحوار في القرآن، قواعد - أساليبه - معطياته، السيد مُحَمّد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، ط٥، ١٩٩٦.
- (١٥) دراسات منهجية في علم البديع، د. الشحات محمد أبو ستيت، ط١، ١٩٩٤.
- (١٦) علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)، مُحَمّد احمد قاسم و محي الدين ديب، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، ط١، ٢٠٠٣.
- (١٧) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، دار الكتب العلمية، لبنان، (د. ط)، ١٩٨٩.
- (١٨) المقاربة التداولية، فرانسواز ارمينكو، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، (د. ط)، (د. ت).
- (١٩) منزلة العواطف في نظريات الحجاج، د. حاتم عبيد، مجلة عالم الفكر، الكويت، عدد٢، المجلد٤٠، ٢٠١١.
- (٢٠) الوعي الجسدي- الإشارات الجمالية في طقوس الخلاص الجسدي، منير الحافظ، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠١٢.